

توفيق الحكيم : ما له ... وما عليه .. مصطفى نور الدين

مجلة الحوار الاسبوعية، العدد ٥، ٤ سبتمبر ١٩٨٧، باريس، ص ص ٥٨ - ٦١

الجمعة 11 آذار (مارس) 2016, بقلم مصطفى نور الدين عطية



توفيق الحكيم: ما له... وما عليه

قال توفيق الحكيم قبل موته بقليل « قضيت نحو ستين عاماً كتبت فيها نحو مائة تمثيلية .. واليوم في آخر عمري أطرح سؤالاً أمام فكري : اما ان هذا الفن ليس له جذور في تاريخ أدبنا فهو صحيح .. واما ادخاله في أدبنا لأنه مفيد فهذا ما احتاج مني إلى تفكير وقد خالجني الشك في هذا ورأيت ان اعترف الآن بالخطأ الذي ارتكبته وأنا استعد للقاء ربي .. فلا ضحكة ولا دمعة ولا دقة قلب من مؤلفاتي هزت أحداً » !

أي الأصوات نتبع ؟ أليس الأكثر صواباً ان نعود إلى ما كتب ؟ فلقد خرج الأمر من يده بعد أن سوّد الصفحات ودفع بها إلى القارىء ، وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من فكر مرحلة ومن فكر أمة . فالاختلاف معه وحوله يظل قائماً بعد موته كما في حياته . وليس من حق من اختلفوا معه أن يشطبوا اسمه من تاريخ الفكر والأدب . فقط نقول ما له وما عليه .. فلقد اخطأ قبله الكثير من المفكرين لدينا في مصر نذكر منهم الشيخ محمد عبده والعلامة علي مبارك عندما أدانا الثورة العرابية . وفي الغرب سقط جون شتهاين بك والكاتب السويسري فريدريش دورتيمات وسارتر ، عندما أيد الأول حرب فيتنام والآخرين إسرائيل .. ولم يمنع ذلك من مواصلة قراءة ما كتبوا ولا محاولة البحث عن أسباب سقوطهم .

نشأ الحكم وترعرع في مصر أوائل القرن العشرين حينما كان المجتمع يموج بالمعاناة من هزيمة الثورة العرابية ووطأة الاحتلال البريطاني وهيمنة رأس المال الأجنبي وحدة القهر الاجتماعي الواقع على ملايين الفلاحين والعمال وصغار الموظفين .

وكانت الحركة الفكرية في أوجها كامتداد لفكر الافغاني ومحمد عبده والكواكبي وما استجد على الفكر العالمي ، فكان أحمد لطفي السيد وقاسم امين وشبلي شميل وسلامة موسى .. وعشرات غيرهم وتصارع الفكر المحافظ والفكر الاشتراكي والليبرالي .

السفر إلى فرنسا

عاش الحكيم في هذا الجو المنعم بالحيوية في العشرينات ثم سافر إلى فرنسا بين ١٩٢٥ و ١٩٢٨ ليدرس القانون .. ولكنه لم يعبأ بهذا الهدف الذي فرضه والده عليه وانغمس في قراءة الأدب الفرنسي والموسيقى والمسرح وبدأ يخط « عودة الروح » روايته التي ارتبطت باسمه كأنه لم يكتب غيرها نظراً لتعبيرها عن مصر في هذه الفترة وعن الآمال التي كانت تتطلع إليها ..

ان الذي يهم عند الكلام عن الحكيم ليس فقط القول بانه كان رائداً عندما كتب الرواية أو المسرحية . فهذا برغم أهميته يظل ثانوياً خاصة وان معظم مسرحياته لم تكن ممكنة التمثيل أو لم تلق الاقبال الكاف . ويعترف الحكيم بذلك لأن معظم مسرحياته ذهنية و « لهذا اتسعت الهوة بيني وبين خشبة المسرح ، ولم أجد « قنطرة » تنقل مثل هذه الأعمال إلى الناس غير المطبعة . » ..

فكتابات الحكيم كانت وسائل يحملها معانٍ معينة أو رسالة بذاتها . وهذا هو الجوهر الذي يجب التوقف عنده . فأعمال الحكيم المسرحية كانت الوعاء الذي صبّ فيه أفكاره الفلسفية والاجتماعية والسياسية . فلقد كان مفكراً يرتبط بالحياة أوسع ارتباط ، وإن كان يعيش في عزلة ليتمكن من النظر والتفكير والخلق بعيداً عن المشاركة العملية التي كان يرى انها تقتل الفكر .

البرج العاجي

ويبلور الحكيم موقفه مبكراً في كتابه « من البرج العاجي » عام ١٩٤١ ويقول : « ما من أمر هز البشرية إلا هز نفسي بل ما من قضية من قضايا الحياة الكبرى التي تمس الانسان وتطوره وتقدمه إلا وشغلتني ودفعتني إلى الجهر بالرأي ، حتى في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية .. دون التفات إلى عواقب الرأي الحر والنقد المر .. » .

وقراءة الحكيم حتى آخر كتاب له « في الوقت الضائع » (الذي نشر في صورة مقالات في جريدة الأهرام في أوائل عام ١٩٨٥) ، هذه القراءة تؤكد إلى حد كبير ما يقوله . ولكن يبقى السؤال الجوهري كيف رأى الحكيم العالم والانسان والمجتمع . إذ بدءاً من هنا نمسك بمواقفه وخلفياتها « الفلسفية » سواء تجسدت رؤيته في مقال أو رواية أو مسرحية .

ويلخص هذه « الفلسفة » كلها ما اطلق الحكيم عليه بـ « التعادلية » ، وهو كتاب أصدره عام ١٩٥٥ ثم أضاف إليه عام ١٩٨٢ جزءاً أسماه « الاسلام والتعادلية » .. ولقد

حسم الحكيم موقفه من تناقضات الكون والمجتمع بسياسته واقتصاده وأدبه ... إلى آخره . ووضع هذه التناقضات على شكل ثنائيات متصارعة ولكنها تستمر في الوجود الصحيح ما دامت متعادلة لا يطغى طرف منها على الآخر . فإذا حدث فهو الاختلال في التعادل الذي يستلزم الاصلاح ليستمر الكون أو المجتمع ...

« فالانسان اذن كائن متعادل مادياً وروحياً » كما كل الكائنات الأخرى ، وهذا التعادل استمر حتى « القرن التاسع عشر بين قوة العقل وقوة القلب » ثم اختل « بتوالي انتصارات العلم العقلي واستمرار جمود الجانب الديني . » ونتج عن هذا الاختلال : القلق .

لا للعقل .. لا للمستقبل

وهنا يمكن أن نتكلم عن مسرحيتين للحكيم أراد أن يجسد فيهما هذا الاختلال وما يصاحبه من قلق . المسرحية الأولى هي « أهل الكهف » التي تروى هروب كل من « مشلينيا » و « مرنوش » وزيري الملك « دقيانوس » لأنهما اعتنقا الدين المسيحي الذي كان الملك يقتل أتباعه .. وتخفى الوزيران بصحبة راعي الغنم « يمليخا » الذي كان مسيحياً أيضاً . ومكثوا في الكهف ٣٠٩ سنة عادوا بعدها للحياة ليعرفوا هذه الحقيقة . وبعد ذهابهم للمدينة التي أصبح سكانها من المسيحيين تركوها مرة أخرى وعادوا إلى الكهف « ليموتوا » .

ولعل مسرحية « رحلة الغد » التي كتبها الحكيم عام ١٩٥٧ ، أي بعد ربع قرن من مسرحية « أهل الكهف » تكشف لنا بعض الأبعاد الأخرى في فكر الحكيم عما يسميه الصراع مع الزمن أو الصراع بين العقل والقلب .. فهو في مسرحية « رحلة إلى الغد » ، يلعب على عنصر الزمن .. وليس من قبيل المصادفة أن يكون الفارق الزمني في هذه المسرحية هو ذاته في مسرحية أهل الكهف أي « ثلاثة قرون وازدادوا تسعة أعوام » ..

شرق وغرب

ان الحكيم له وجهة نظر ثابتة في الانسان ، تطرق إليها في العديد من كتاباته .. فهذا الصراع بين العقل والقلب أو بين العلم والايمان أكدّ عليه مرات عديدة في روايته « عصفور من الشرق » . فالغرب « المتقدم » سقط في مادية أعطته القناعة بأن الانسان هو إله الكون ولم يعد للعقيدة عنده ما كانت عليه سابقاً . وان التوازن الحقيقي يتم في الشرق بدياناته السماوية التي أعطت للانسان طمأنينة على مستقبله في فكرة البعث والحياة الأخرى .

تمحو شيئاً غرس في طبيعة الانسان من قديم ، ولكنها تبدل في لونه وطلائه ، وتعدل في ملامحه ، وتكسوه ثياباً أخرى وتسميه اسماً جديداً يتفق مع روح العصر الجديد .. فالانسان لا يتغير » .

ويقول الحكيم في كتاب « تحت شمس الفكر » مؤكداً هذه الفكرة : « في مصر أفكار ثابتة لم تتغير إلا قليلاً ، منذ عهد الأساطير الأولى حتى اليوم ، ذلك لأنها متصلة بصميم هذه الأرض ومستوحاة من نفس طين هذا الوادي الخصيب ومن نفس هذا النيل الخالد ! ان أفكار الانسان وعقائده ودياناته وخرافاته انما تولد من مظاهر الحياة التي حوله ! »

ان هذه الماهية الثابتة التي يقول بها الحكيم هي التي تقف





خلف رفضه لكل جديد لا يكون « اعادة انتاج للقديم » ..

ارادة الانسان وحدودها

ولكن هنا أيضاً لابد من اضافة فكرة أخرى للحكيم تكمل « فلسفته » وهي فكرة محدودية ارادة الانسان .. فهو ليس إله الكون وانما تواجهه إرادة أخرى هي الارادة الالهية . فهو حسبما يقول في « التعادلية » : « فالانسان عندي ليس إله هذا العالم ، وهو ليس حراً .. ولكنه يعيش ويريد ويكافح داخل اطار

ويصبح بالتالي هذا الاختلال في الغرب وعند « الفتاة الشقراء » الممثلة « لحزب المستقبل » والغرب بالتالي أيضاً ، في مسرحية « رحلة إلى الغد » ، ويصبح هذا الاختلال منتفياً لدى الشرق مثلما هو منتف أيضاً لدى « الفتاة السمراء » ، التي هي الشرق أيضاً ، وتمثل « حزب الماضي » .. وتلك الأفكار يقولها صراحة في كتاباته غير الفنية ففي كتابه « من البرج العاجي » ، يؤكد على ان للانسان ماهية ثابتة فيقول : « ان الانسانية في تطورها لا

الارادة الالهية .. هذه الارادة التي تتجلى للانسان أحياناً في صور غير منظورة من عوائق وقيود على الانسان ان يكافح لاجتيازها والتغلب عليها ... » و « حرية الارادة في الانسان عندي اذن مقيدة ، شأنها في تلك شأن حرية الحركة في المادة .. » !!

وهنا يمكن أن نستنتج مسألة مبدئية وهي ان الحكيم مفكر مسلم يطرح جانباً كل القضايا الجدالية التي ثارت بين المعتزلة والأشعرية حول حرية الانسان والارادة الالهية ومسائل القضاء والقدر والعدل والجور ... إلى آخره . فهو ينتمي إلى نتيجة تريح عقله ويطمئن إليها قلبه دون الذهاب أبعد من تلك في التفلسف .

ولعل المسرحية التي تمثل في تصورنا هذه القضية أفضل تمثيل هي مسرحية « الملك أوديب » التي كتبها الحكيم عام ١٩٤٩ . وأخذها عن مسرحية سوفوكل اليونانية .. فالارادة الالهية شاءت أن يقتل أوديب أباه ويتزوج من أمه .. واراد ترسياس ، المنجم الضرير ، ودون أن تكون له معرفة مسبقة بالارادة الالهية ، أراد أن ينقطع الحكم الوراثي في « طيبة » وأن يختار الشعب ملكاً من بين الناس « مجرداً من الحسب والنسب » ، لا سند إلا خدمته للشعب ولا لقب له إلا بطولته وذلك حتى لا تكون هناك إلا ارادة الشعب ..

اننا لو تركنا جانباً المسرحية وركزنا على الفكرة التي يقول بها الحكيم فإننا نصل مباشرة إلى تصوره عن التغيير السياسي والاجتماعي . فهو يريد أن تسير الأمور مسارها « الطبيعي » وألا يتدخل الانسان لقلبها رأساً على عقب .. فقط على الانسان أن يصلح ويقيم التوازن والا يتجرأ ويحدث تغييراً ثورياً ، فهو قد يؤدي إلى عواقب وخيمة لمعارضتها للنواميس .. !!

وهنا يمكن أن نجد اتصالاً بين فكرة مسرحيته « الملك أوديب » ومسرحية « ايزيس » فهذا

الاختلال فيما كان سائراً تدخلت فيه إرادة الانسان لتغييره وكان على ايزيس ان تعيد الأمور إلى ما كانت عليه بغض النظر عن الوسيلة التي تلجأ إليها حتى ولو كانت منافية للمبادىء التي تدافع عنها ..

الحكيم والسياسة

ولأن مسرح الحكيم ليس مسرحاً ذهنياً دون خلفية سياسية فهو على نحو غامض كان يرمز لأحداث بذاتها قامت بها ثورة يوليو ١٩٥٢ .. وذلك حسبما يقول محمود أمين العالم .. وربما يكون لمسرحية « براكسا أو مشكلة الحكم » امتداد مع مسرحية « ايزيس » . في بعض تطورات الحكم في مصر وفي فكر الحكيم ذاته .

ولكن في البدء تجب الاشارة إلى أن المسرحية قد نشرت لأول مرة عام ١٩٣٩ في ثلاث فصول فقط .. ثم نشرت بالفرنسية عام ١٩٥٤ بعد ان اضاف الحكيم ثلاثة فصول أخرى وطبعت لأول مرة كاملة بالعربية عام ١٩٦٠ ..

واذا توقفنا عند الطبعة الأولى للمسرحية فإن الحكيم يسير بالأحداث على حلقتين الأولى تتوالى فيه النساء على الحكم بقيادة « براكسا » . أي حكم « القلب » ، وتفشل في السيطرة على الأوضاع ، فيحدث انقلاب يقوم به عشيقها القائد العسكري « هيرونيمـــــوس » .. أي « القوة » . لقد فشلت اذن « الحرية الجميلة » حسبما تقول براكسا عن حكمها في حين يسمى هيرونيموس حكمها « بالفوضى » ، وحكمه هو « بالنظام » .. ويلخص ذلك في قوله : « أنا النظام ! أسمعت منذ قبضت يدي على الحكم ان قامت طائفة بطلب ؟ أو هرف أحد برأي ؟ أو فتح فم بصياح ؟ أو ارتفع صوت بهتاف ؟.. مضى كل هذا ، وانقضى عهــد الأحزاب ، وانمحت الخلافات والمنازعات والمنافسات ! لقد جمعت شمل الأمة ، ووحدت كلمة البلاد ! الكل الآن كأنه واحد ! والشعب كأنه فرد !.. » ويسأله الفيلسوف : هو انت .. فيجيب هيرونيموس : نعم ! هو أنا ، ولا شيء غير أنا ، ولا إرادة إلا ارادتي ولا يد إلا يدي ! و « سأعطي الشعب بهذه اليد أخلد المجد ! » .

الا نسمع هنا صوت هتلر ؟ مجرد سؤال ؟! الدكتاتورية اذن كانت هي الحل عام ١٩٣٩ . خاصة وان الحكيم قد نشر قبلها بسنة واحدة سلسلة من الفصول في شكل حوارات ثم نشرت عام ١٩٤٥ في كتاب « شجرة الحكم » وقام فيها بالهجوم الشديد على النظام البرلماني في مصر ..

والواقع ان كتاب « شجرة الحكم » ، لا يناظره كتاب آخر في سخريته من الحياة السياسية في مصر .. اذ يتصور الحكيم أن رجال السياسة من رئيس الوزراء إلى الوزراء إلى زعماء المعارضة وغيرهم قد تقابلوا في « الجنة » في حوارات ثنائية حيث يتكاشفون عما كان يمارسون من فساد وأخطاء قد ارتكبوها وهم في الحكم أو في المعارضة .. فاقتبس على سبيل المثال ما يقوله « صاحب الدولة » أي رئيس الوزراء إلى صاحب المعالي : الوزير : « صدقت ، ان الحال في مصر أيضاً أعجب من ذلك ، فإن الشعب لا ينتخب ، ولا يدري ما هو الانتخاب ، ولكنه يرى معدات « الموسم » قد نصبت ، ويسمع الطبل والزمر ، ويجد أشخاصاً قد أقبلوا في السيارات « يجمعون » أصواته بالنقود والوعود ؛ فشأنه في « موسم الانتخاب » كشأنه في « موسم دودة القطن » سواء بسواء .

كان هذا أحد مواقف الحكيم من الحياة النيابية ، ولذلك تصور ان الدكتاتورية هي الحل .. ولكنه بعد ثورة ١٩٥٢ أضاف لمسرحية « براكسا » ثلاثة فصول جديدة . حيث يفشل الحكم الدكتاتوري اي حيث تمسك « القــوة » وحدهــا السلطة .. ويستلزم اصلاح الموقف ان تجتمع في السلطة « القلب : براكسا » و « القوة : هيرونيموس » بجانب الحكمة أو الفيلسوف : ابقراط » .. ويكون دور هذا الثلاثي الحكم الفعلي بينما يضعون على رأس الدولة ملكاً على شرط « أن يكون حائزاً على صفة هامة » . ما هي هذه الصفة ؟ « أن يكون مغفلاً » ليكون كما تقول براكسا : ذلك الذي يلزمنا ، يجب أن يكون في قبضتنا وتحت تأثيرنا ، لا يبرم شيئاً إلا بوحينا ، ولا يقدم على قرار إلا برأينا وإرادتنا ، دون أن نظهر مع ذلك امام الناس أو تكون لنا صفة رسمية بادية للشعب ! » .

الحكيم وثورة يوليو : المواجهة والادانة

ولقد تطور فكر الحكيم السياسي طوال حياته إلا انه ظل مجرد فكري نقدي اصلاحي . وإن كان يلمس التناقضات بين الأفكار والمبادىء والممارسة والتطبيق الا انه لم يحاول ان يذهب إلى خلفيـــات هذه التناقضات .. ذلك لأنها بالنسبة له تظل تناقضات ممكنة على أن تتسم « بالتعادل » وبحيث لا يحدث اختلال في الحياة الاجتماعيـــة والاقتصاديـــة والسياسية . ولقد كتب في فترة الستينات تجربته التي أسماها « بنك القلق » وهي انتقاد لتجربة ثورة يوليو التي أقامت مجتمعاً بورجوازياً وأسمته المجتمع الاشتراكي .. فالرأسمالية هي الممارسة اليومية لمن أسماهم بالبورجوازيين الاشتراكيين أو « الاشترارأسماليين » .. فالذي يسود هذا المجتمع انما هو النمط البوليسي ـ المباحثي الذي يراقب ويتلصص على حياة الناس ..

ولكن يظل أقسى ما كتبه الحكيم عن ثورة يوليو ، كتابه « عودة الوعي » الذي أصدره عام ١٩٧٤ .. بعد وفــاة عبدالناصر . ثم الحوار المطول الذي نشرته مجلة « الطليعة » القاهرية خلال الشهور الأولى من عام ١٩٧٥ . ويمكن ايجاز موقف الحكيم في الثورة بالتناقض أو بدقة في عدم تطبيق المبادىء التي أعلنتها كفلسفة لها أي « الحـــرية والاشتراكيـــة والوحدة » .. ويقول الحكيم في حواره في « الطليعة » انه كان يؤيد عبدالناصر في أول الثورة عندما كان يطبق ما أعلن وتتحول إلى انجازات مثل الاصلاح الزراعي وتحديد الملكية ولكنه بعد ان بدأ يطلق مبادىء تحولت لشعارات لا تطبق في حين تنتظر الجماهير هذا التطبيق « بدأت أشعر بشيء من بعض خيبة أمل أو بعض الترقب والانتظار . » و « اننا لو أردنا انصاف الثورة المصرية في ١٩٥٢ ، فيجب أن نفصل مبدأها الثابت في الحرية والاشتراكية والوحدة عن التطبيق الناقص » .



وربما يكون النقد الأساسي الذي يوجه إلى موقف الحكيم متمثلاً أساساً في عدم اعلانه لمواقفه ابان وجود عبدالناصر واصدار كتابه في الفترة التي بدأ فيها السادات الهجوم على منجزات ثورة يوليو في عصر عبدالناصر .. وكذلك يؤخذ على الحكيم عدم تعرضه لهدم السادات لمنجزات ثورة ١٩٥٢ ودخوله بمصر في مرحلة منافية جذرياً لمبادئها ودفعها نحو مزيد من التبعية .

والحكيم إذا هوى

ومثلما ارتبط الحكيم بقضايا مصر السياسية فلقد شغلته قضايا

البلدان العربية ففي عام ١٩٤٣ كتب مقالاً بعنوان : « خيبة أمل » قال فيه ان أمله خاب « في فرنسا التي تطأ بأقدامها استقلال شعب صغير » وكان ذلك كما يذكر الحكيم في كتابه « مصر بين عهدين » ، « على اثر اعتداء السلطة الفرنسية في بيروت على استقلال لبنان ، واعتقالها يومئذ رئيس جمهوريته ووزرائه ونوابه » .. ورد الحكيم نيشان أهدته له الحكومة الفرنسية بمناسبة ترجمة مؤلفاته إلى الفرنسية وكان ذلك « على اثر اعتداء فرنسا على تونس ، وكانت مذابح وضحايا وتكونت في مصر لجنة الهلال الأحمر رأت الذهاب إلى تونس بالأدوية اللازمة للجرحى . وإذ بالسلطات الفرنسية هناك ترفض دخول هذه



اللجنة المكونة من أطباء مصريين يحملون الدواء » .

ويتساءل الحكيم « ولكني عجبت لنفسي ، ما الذي كان يغضبني هذا الغضب !!. أنا لم أكن يوماً من حملة الشعارات لا للوحدة العربية ولا لغيرها من مواقفنا المصرية .. اني أتصرف دائماً من وحي شعوري التلقائي ونظرتي الخاصة .. » وإذا كنت أغضب تلقائياً لما يمس أي شعب عربي ، فمعنى هذا انه لابد « أن يكون هناك شيء مشترك . » !

ولكن لابدّ من التذكير ان مواقف الحكيم المماثلة قليلة جداً ، وهو الذي حتى الخمسينات لم يتكلم عن الاحتلال الانجليزي وينصهر في الحركة الوطنية المصرية المناضلة من أجل الاستقلال .. وان كان الحكيم في شبابه المبكر كتب مسرحية « الضيف الثقيل » عشية ثورة ١٩١٩ ، رامزاً بهذا الضيف الى الانجليز ، فإنه لم يعد للكتابة لأعمال مماثلة طوال حياته الأدبية فيما قبل ثورة ١٩٥٢ . وينسى الحكيم أن يقارن الوجود الصهيوني في فلسطين بالصفة ذاتها . بل على العكس أثار الحكيم غضب الوطنيين في مصر وباقي العالم العربي عندما فقد حسه السياسي وأيدّ مبادرة السادات للتسوية المنفردة مع إسرائيل ، وبرغم ما يقال عن تراجعه فإن ذلك ليس حقيقياً فهو يكتب في الأهرام بتاريخ ٥ أغسطس ١٩٨٤ يقول : « كامب ديفيد يتهم فيه البعض موقف السادات على أساس انه موقف خيانة للعرب .. ولو انني كنت فهمت ذلك حقاً لكنت هاجمت السادات .. الذي فهمته من كامب ديفيد انه محاولة استرجاع هذا الجزء الكبير من أرض مصر المحتلة إلى أصلها ، والأشقاء العرب لابد أن يسرهم ، بل يجب أن يسرهم عودة أرض محتلة عربية إلى أصحابها ، ولكننا مع ذلك سمعنا كلمة « خيانة » فأين الخيانة ؟ » !! ويضيف الحكيم : لقد كان على السادات « ان يقنع العرب ان معنى استرجاع سيناء ليس التخلي عن دوره العربي بل ان ذلك على العكس سيساعده على اقامة قاعدة قوية يمكنهم منها استعادة باقي الحقوق العربية .. ويقنع امريكا بضرورة ان تسانده جدياً في معاونة العرب ولا تهمل شأنهم كما حدث . ويقنع الاتحاد السوفياتي بموقفه وعدم تعارضه مع علاقات مصر بالسوفيات .. ولكنه بدلاً من ذلك راح يكيل الشتائم العلنية للسوفيات فخسر العرب والسوفيات وهما طرفان مهمان » !!

وبرغم ان الحكيم كما يقول ليس من الذين يرفعون شعار القومية العربية إلا أنه يقدم بديلاً بدعوة « جامعة الدول العربية الثقافية والروحية » . ويفسر ذلك بان تحقيق القومية العربية ليس من السهل لأنها ليست انجازاً مادياً وانما فيها عناصر روحية ومعنوية . « لذلك لا يمكن فيها مجرد الاخضاع أو الفرض الاجباري بوسائل مادية . ولهذا لم تنجح « الجامعة العربية » النجاح المطلوب منها لأنها أقيمت على اساس سياسي . والسياسة رمال متحركة » .

عداوة حتى الموت للمرأة

ولعل أكثر المواقف الاجتماعية التي التصقت بالحكيم هو موقفه من المرأة .. فلقد اطلق عليه « عدو المرأة » . فالحكيم كتب مسرحيته « المرأة الجديدة » سنة ١٩٢٣ .. وفيها وقف مناهضاً لحرية المرأة وسفورها في الوقت الذي كانت فيه دعوة قاسم أمين تنطلق في أرجاء مصر .. ويظل موقف الحكيم محافظاً لسنوات طوال .. عشرات السنوات .. ففي كتابه « حمار الحكيم » الذي كتبه سنة ١٩٤٠ يقول بان المرأة المصرية « مداركها المعنوية قاصرة » و « ان الحب الرفيع مجهول الا عند نساء الريف وحدهن بل عند نساء المدن المتعلمات أيضاً .. لأن روح **الجوارى البيض** كاملاً ما زال في هؤلاء وأولئك على السواء » .. وفي كتاب « تحت شمس الفكر » يقول الحكيم : « نعم ان المرأة للبيت ، ولكنها لكي تكون بحق ملكة البيت وقرة عينه يجب أن تتثقف أكمل ثقافة .. » !! و « ان عداوتي لهذا المخلوق لن تنقطع ما دمت أخشى منه .. ان عداوتي ليست الا دفاعاً عن نفسي ، فلو ان المرأة تمثال من الفضة فوق مكتبي أو باقة من الزهر في حجرتي ، او اسطوانة موسيقية انطقها وأسكتها بإرادتي ! لما كان لها عندي غير تقديس وإكبار لا يحدهما حد ، ولكنها للأسف شيء يتكلم ويتحرك وهي أحياناً كالطفل يلقي من النافذة كل شيء ثمين ، ويجلس على حافتها يضحك ضحكة الانتصار ... » !!.. « نعم .. يجب أن تفهم امرأة الفنان ان كل حياتها ينبغي أن تقدم لزوجها الفنان ، وان رسالتها في الحياة ان تكفل لزوجها الحياة الهنيئة الجميلة التي في كنفها ينتج ويخلق .. » !! « زوجة الفنان هي تلك التي تعنى بزوجها ، ولا تطالب زوجها ان يعنى بها !.. هي التي تزيل متاعب زوجها ، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها .. » و « ان المرأة الجميلة هي عدو الرجل المفكر . » !

ونختم موقف الحكيم من المرأة بما كتبه في مقالات « الوقت الضائع » عام ١٩٥٨ حيث يقول : « كان رأيي فيها كما كنت أراها في زمن سابق قد فهمت فيه الفهم الخاطىء في نظري لمكانها في المجتمع .. وجريها المضحك خلف الرجل لمحاكاته في كل سطحياته .. اما في زمننا الحاضر فاني أراها في صورة أخرى .. » فهو يرى المرأة تحمل أعباء المنزل كاملة بجانب أعباء عملها المماثل لأعباء الرجل . ولذا فهو يتوقع انها سوف « تعود لوعيها يوماً .. وتدخل مملكة بيتها . وتجلس على عرشها وتجعل الرجل من رعاياها الكادحين ، وتعكس الآية فتجعله يعمل في البيت في الداخل أيضاً علاوة على عمله في الخارج ليكون عليه الدور في تقليدها » !!

ولقد قطع الحكيم ما بينه وبين ما كتبه في أول حياته الأدبية ورفضه لسفور المرأة ، وأخذ موقفاً ناقداً ساخراً من النساء المحجبات ، فيقول في « في الوقت الضائع » : « يجب أن نقول للمرأة ذات الحجاب الكثيف ، اكشفي عن وجهك وكفيك كما أحلّ الدين ياصاحبة العفة الكاذبة » !

لقد كانت حياة الحكيم جحيماً داخلياً حاول أن يكون الأدب حمام الأمن والأمان لتستمر ■

مصطفى نور الدين عطيه

حمل المقال من أسفل

توفيق الحكيم : ما له ... وما عليه ..
مصطفى نور الدين

أي رسالة أو تعليق؟